

تاريخ القبول: 2019/12/06

تاريخ الإرسال: 2019/04/13

تاريخ النشر: 2020/01/08

## منظومة القيم في التراث الصوفي The Value System in Sufi Heritage

نادية درقام

جامعة محمد بن أحمد، وهران 2 philo.rumi2015@gmail.com

بن عومر رزقي

جامعة محمد بن أحمد، وهران 2 ben.rezki@yahoo.fr

### المخلص:

يعتبر التصوف حقلا دينيا يكرس التحقق بالعبودية لله تعالى فهو بمثابة روح الإسلام، وساد تاريخيا التعامل مع التصوف الإسلامي تعاملًا يصنفه ضمن العلوم الأخلاقية، ذلك أن التصوف فلسفة حياة تهدف إلى الترفي بالنفس الإنسانية أخلاقيا، فكان محوره الأخلاق، فاصطلح عليه تبعًا لذلك علم التزكية، وأنه كله خلق، ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف. حاولنا في بحثنا الوقوف على منظومة القيم التي توطر التربية السلوكية في التصوف كالمحبة ونبذ العداوة ومحوها من النفس كذا التوحيد العميق، وطلب السعادة الأخروية، وذلك كله من خلال معادلة دقيقة تجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة، اصطلاح عليها إجمالًا علم التزكية.

**الكلمات المفتاحية:** التصوف؛ الخلق؛ القيم؛ الحب؛ السعادة؛ التزكية.

### Abstract:

Sufism is a religious domain dedicated to the realization of servitude to God, and considered as the spirit of Islam, Sufism is treated historically as a science of ethics, so that it is a philosophy of life that Its aim is to promote the human spirit in the ethical field, and the latter was the pivot of its objectives, so that everybody that

exceeds you in ethiqe exceeds you in Sufism. In our research, we have tried to identify the system of values that frames behavioral education in Sufism, such as love, and the renunciation of hostility in the soul's delusion then such a deep unification and asking for spiritual happiness. All this through a precise equation that combines the sharia and the way and the truth, called the science of purification.

**Key words** : sufism, ethic,value, love, happinesse, purification

## 1. مقدمة:

إن الحديث عن منظومة القيم في التراث الصوفي هو الكشف عن مقومات التصور الإسلامي لمنظومة القيم في بعديها النظري والعملي، إذ اعتبرت الممارسة الصوفية داخل الفضاء الإسلامي أبرز التجارب الإسلامية تمثلاً لهذه المنظومة، حيث يعد الاهتمام بالسلوك هو أحد الركائز الثلاث التي يتقوم بها التصوف الإسلامي، فالالتزام بالشريعة من أجل الوصول إلى الحقيقة يحتم إتباع طريقة، من هذا المنطلق جاءت التعبيرات الصوفية عن منظومة القيم معرفياً وسلوكياً بعد التزامها هي نفسها بنظام قيمى دقيق، لم تشيع ثقافته إلا بعدما عاشت تجربة عميقة جعلتها تتبنى منظومة قيم التسامح مع الذات ومن ثمة مع الآخر، فانتصرت للقيم الإنسانية العميقة التي تحفظ كرامته وتعيّنه على وظيفته الوجودية، فكان الانصياع للدعوة الإسلامية للمطلب الإسلامي بالدعوة إلى التخلق بأخلاق الله، فكان العفو والتراحم والتسامح يسبق إي سلوك فيه غلظة. فماذا تتميز منظومة القيم في التراث الصوفي؟ وما هي ركائزها ومنطلقاتها؟ ما هي ضرورتها؟

## 2. الأبعاد الفلسفية والسلوكية لمنظومة القيم:

تعددت تعاريف القيمة وتنوعت انطلاقاً من الزاوية التي تم التركيز عليها، فهناك من رأى أن القيمة: ما يرتفع بالفرد إلى المنزلة المعنوية، ويكون مصدر القيم في الأساس الدين، فالإنسان لا يكون مصدر القيم وإنما أداة تتجسد فيه القيم.<sup>1</sup> مما

يعني أن القيم خاصة بالإنسان فهو مجال تحققها، القيمة تفضيل، فاعلية تفضيل أو ترجيح توجد بالفعل لدى وجود صاحبها وهو الفاعل القيمي.<sup>2</sup> كما أن القيمة حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة من المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع محددًا المرغوب عنه من السلوك.<sup>3</sup> وهذا وفق الرؤية الإسلامية إذ أن الشرع يتدخل في تحديد القيم ويضبطها من أجل جعل الإنسان ينسجم مع حقيقته. فأما القيمة فإنها هذا القانون الحي الذي يؤلف قوام الشخص الإنساني، وهو مبدأ موضوعي للعمل، أي مبدأ يصح أن يقره كل إنسان عاقل، بل لابد له من أن يقره.<sup>4</sup>

تعمل القيم على تحديد الموازين التي تكفل حياة طيبة للإنسان، فتتدخل في ضبط النظام العلائقي وتطويره، فتعتبر القيم حقائق أساسية هامة في البناء الاجتماعي وهي لذلك تعالج من منظور سيوسولوجي على أنها عناصر بنائية، تستق أساسا من التفاعل الاجتماعي، حيث ينصب اهتمامهم على بناء النظم ووظيفتها وأنواع السلوك، وعلاقتها بهذه النظم من منظور جماعي.<sup>5</sup> وبهذا تساهم في بقاء الجماعات وتحافظ عليها، فالقيمة تشير إلى ما هو جدير بالاحترام والتقدير من الفرد أو الجماعة في البيئة الاجتماعية.<sup>6</sup> لذلك تتدخل القيم في تمييز الأفراد قيميا، وفي هذا الصدد يقول شارل لالو: "إن النمط السوي لا يحظى بقيمة عالية جدا، ولكنه يتمتع بالقيمة فعلا. أجل، ليس كل كائن سويا، فهذا الفرد يقترب من المتوسط الصحيح، أو يحقق هذا المتوسط في نقطة، ويقصر عنه في نقطة أخرى."<sup>7</sup>

اشتغل الفكر الفلسفي لاسيما الفلسفة الإغريقية على تحديد القيم، حيث يعد مبحث القيم أشهر المباحث الثلاثة إلى جانب مبحث الوجود ومبحث المعرفة الذين تمت فيه مناقشة الإشكاليات الكبرى التي تستفز السؤال الفلسفي، فنظرية القيم تتناول بحث المثل العليا والقيم المطلقة، وهي الحق والخير والجمال من حيث ذاتها باعتبارها وسائل تحقيق غايات.<sup>8</sup>

لا يستطيع الإنسان أن ينظم سلوكه ويطوره دون أن تكون بوصلته منظومة القيم، إذ تعدد القيم من المفهومات الأساسية في كافة العلوم الإنسانية إذ تستمد أهميتها لما لها من خصائص نفسية واجتماعية، فضلا عن كونها تتسم بالعمومية بوصفها محددات السلوك الإنساني، فهي التي تحرك الأفراد والجماعات نحو أهدافهم، كما أنها تعتبر مرجعا للحكم على سلوكياتهم المختلفة.<sup>9</sup>

لا يوجد تفاضل بين القيم بحيث تعمل كل قيمة أن تزيج بقية القيم لتسود هي بل وجود كل قيمة مرهون بوجود باقي القيم مما يجعل القيم تتصافر لتشكل منظومة متماسكة فيما بينها، لذلك إن بين القيم المتعددة تكافلا يجعلنا لا نريد قيمة بدون أن نريد سائر القيم في الوقت ذاته. ومن الخطأ أن نقول بقدرة أي إنسان على أن يختار قيمة خاصة به من لائحة قيم معينة وينفي سائر القيم، وذلك لأنه لا يستطيع أن يكتشف قيمة ويريدها إلا حينما تبدو له متكافلة مع القيم.<sup>10</sup>

تضم منظومة القيم ما هو حق وجمالي وأخلاقي إلا أن شهرة الأخلاقي هو الذي طغى على منظومة القيم ككل، بحيث كانت الأخلاق عنوان لمنظومة القيم ككل، فالفعل الإنساني يتميز ببعده الأخلاقي القيمي المتمثل في القواعد المعيارية المنظمة للسلوك الإنساني، وتشكل الظروف الخارجية علامة محورية في تشكيل بنية السلوك.<sup>11</sup> ولذلك ارتبطت الأخلاق بالإرادة، فكانت القيمة الأخلاقية هي قيمة الإرادة، كما أن الحقيقة قيمة المعرفة، والجمال قيمة التخيل، والحب قيمة القلب.<sup>12</sup> كما تختزل القيم الأخلاقية ما يستهدفه الشرع من ترقية الإنسان، فاعتبرت القيمة الأخلاقية، قيمة التحديد المثالي، قيمة الشرع، هي القيمة التي تصبح عند تحققها في الواقع منحي الفضيلة. ومن الجائز تعريفها بأنها ما ينبغي فعله، بمعنى أن الفعل هو فعل شيء ما. فالقيمة الأخلاقية هي قيمة العمل.<sup>13</sup>

تستهدف الشريعة الإسلامية نشر الفضيلة في المجتمع الإنساني لتحول بينه وبين الانزلاق إلى حد البهيمية، فجوهر الأخلاق قائم على الانسجام بين وجدانات الفرد ومطالب المجتمع، فالإنسان يبحث عن فعل الخير وجمال الفضيلة، وقوام السلوك الطيب هو حب الفضيلة لذاتها، لأن الفضيلة جمال والنفس بطبيعتها تهفو إلى الجمال وتنفرد من القبيح.<sup>14</sup> لذلك كلما تحكمت منظومة القيم في إرشاد السلوك الإنساني كلما ساهم ذلك في ترقية المجتمع الإنساني ووطد العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، لأن الجماعة الإنسانية مجموعة أشخاص يجمعهم غرض واحد ويشتركون إلى أكبر حد مستطاع في ضروب مختلفة من النشاط تنشأ عن استجابات جسمانية ووجدانية مختلفة. لا بد من توافر قدر من التماثل والتقارب في الميول والآراء والعواطف للتعاون في حياة الجماعة وتحويلها إلى وحدة متميزة بمشروعات مشتركة وبمسؤولية مشتركة وبقوة جمعية لا يبلغها أفرادها وهم متفرقون.<sup>15</sup>

تعمل منظومة القيم في أي مجتمع من المجتمعات على رفع الحواجز بين أفرادها فتشاع ثقافة التعايش السلمي الذي تتعزز فيه كرامة الإنسان وتزيد الطمأنينة فينزع إلى السلم والتسامح، وذلك بفضل القيم المشتركة التي يعيش بها الإنسان في كل المجتمعات التي طورها، وتمثل هذه القيم المشتركة مجموعة المبادئ والمثل التي عرفها الإنسان في تاريخه بصر النظر عن اختلاف مصادرها وتعدد أنساقها وتنوع أشكالها، ويمكن أن نذكر من بين هذه القيم المشتركة قيم الحب، والجمال، والعدالة، والتسامح، والنبيل، والكرامة، والتضحية، والإيثار، والتعاون<sup>16</sup>

يعد الاشتغال على نشر المحبة والتآلف بين بني الإنسان الهدف الاسمي الذي تحققه البشرية، لأنه بذلك يطغى المشترك الإنساني العام كل مجالات الأنشطة الإنسانية، وداخل هذا المجال الإنساني العام تبرز القيم الإنسانية المشتركة التي لا تختلف عليها الأديان والحضارات، فهي قيم إنسانية عامة جمعت البشرية قديما.

تدخلت كل الشرائع والكثير من الفلسفات في تحديد منظومة القيم ورغم وجود بعض التباينات بينها إلا أن معيارية الطيبة والخبث التي تستشعرها فطرة كل إنسان جعلت إمكانية وجود منظومة قيم صالحة لكل البشرية، ومن هنا يدل فلاسفة الأخلاق على عمومية القيم الأخلاقية بقولهم إن الناس في جميع الأزمنة والأمكنة قد قسموا، وما زالوا يقسمون الأعمال الإنسانية إلى أعمال طيبة وأعمال خبيثة كما أنهم قد اتفقوا على وجود سلطة وقواعد أخلاقية، وإن حاولوا أن يخرجوا على هذه السلطة أحيانا.<sup>17</sup>

### 3. حقيقة التصوف والنزوع القيمي:

يقدم التصوف نفسه مرتبة عميقة للدين، حيث ارتبط بالإحسان وهذا الوصف يجعله منظومة مشحونة بالقيم، في مجال تعريف التصوف قدمت له تعريف كثيرة سواء من قبل دارسيه أو من طرف أهل الممارسة الصوفية أنفسهم، فهناك من اعتبر التصوف من الفنون والعلوم التي انتشرت في البلاد الإسلامية، وهو علم له أسس وقواعد بني عليها.<sup>18</sup> كما هناك من تحدث عن وثيقة التصوف في علاقته مع روح الإسلام وذلك أن التصوف في حد ذاته ما هو إلا الإسلام في شموله وسموه وروحه العالية المتألفة، فهو كما انتهى إليه التعريف الشامل عبارة عن : حفظ الشريعة، وحسن الخلق، وسلب الإرادة لله.<sup>19</sup>

لم يكن من سهل التحقق بهذه المطالب للإسلام إلا بالامتثال للإسلام ذاته، ولما كان الجمع بين هذه العناصر الثلاثة (حسن الشريعة وحسن الخلق وسلب الإرادة) شاقا على كثير من النفوس، فقد انفرد به رجال أرادهم الله، فأحبهم وأحبوه، واستبسلوا في جهاد النفس لقهورها على الجادة، عاملين بكل ما أوتوا من القوة في إحياء الشريعة قولاً وعملاً وحالاً ومقاماً وذوقاً، فلانت طباعهم، وخفضوا الجناح

للعمامة والخاصة، وتخطوا العقبة الكئود التي تحطمت على صخرتها جهود أكثر الناس، ألا وهي سلب الإرادة لله.<sup>20</sup>

عندما نريد التعرف على حقيقة التصوف مواجهه نوعا من النزوع إلى التحقق بمنظومة القيم عند أهله، فعلم التصوف يهتم بصفاء القلب من الشهوات كحب الرئاسة وحب السمعة وحب المحمدة من الناس، وبصفائه من الكدرات أي من الأمراض القلبية كالحقد والحسد والكبر والعجب والغرور وسوء الظن بالناس.<sup>21</sup> فالسعي الدائم نحو التحقق بالصفاء الباطني الذي ينعكس في السلوك هو أهم قضية يشتغل عليها الصوفي، فالتصوف فلسفة حياة تهدف إلى الترقى بالنفس الإنسانية أخلاقيا، وتتحقق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقا لا عقلا، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية الطابع وذاتية.<sup>22</sup>

تستهدف منظومة القيم الإسلامية تحقيق السعادة والتي لا تقتصر على النشأة الدنياوية بل الغاية القصوى هي التحقق بالسعادة الأبدية وهذا الذي يجعل الصوفي يتميز بالالتزام الصارم بالأخلاق الإسلامية، إذا لم تتحل نفسه... بالعلوم ومكارم الأخلاق... والتتنزه عن الشهوات الطبيعية الصارفة عن النظر الصحيح لا سبيل له إلى السعادة الأبدية.<sup>23</sup> وهذا ما أدى بانصبغ التصوف بالصبغة الأخلاقية، وعن هذا يقول أبو الوفا التفتازاني في مدخله إلى التصوف: "ومن هذا يتبين لك أن التصوف في الإسلام، كعلم ديني، يختص بجانب الأخلاق والسلوك، وهو روح الإسلام."<sup>24</sup> ولم يفرق الصوفية بين التصوف والأخلاق مطلقا، حيث يقول النوري وهو أحد الصوفية: "ليس التصوف رسما ولا علما، ولكنه خلق."<sup>25</sup>

يعد التحلي بالخلق الحسن الغاية من السلوك الصوفي، كما أن لخوض تجربة السير والسلوك الصوفية يجب أن يلتزم ضوابط وينصاع لمعايير خاصة بهذا

السلوك، فيكون المنهج الذي يلتزمه الصوفي للتحقق بالقيم وهو ذاته قيمة وذلك هو سر الترقى، وفي هذا الصدد يقول ابن عربي: كلما ازداد الإنسان في الخلق درجات ازداد في التصوف أبهى الدرجات. فأمر التصوف أمر سهل لمن أخذه عن طريق التخلق الحسن، طريق الحق دون أن يستنبت لنفسه أحكاما ويخرج عن ميزانه.<sup>26</sup>

ارتبط التصوف الإسلامي ارتباطا وثيقا بترقية الأخلاق، وهنا يقول الجنيد: "التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني."<sup>27</sup> فيكون لزما على كل صوفي كشرط للسير والسلوك التحقق بالصدق كمنطلق للوصول. فالصوفي من لزم الصدق مع الحق، والخلق مع الخلق.<sup>28</sup> فإذا كان الصدق شرطا أساسيا لخوض المسلك الصوفي فإن المحبة هي التي تسهل مهمة السير، لأن أساس النظرية الصوفية في الأخلاق هي الحب وهذه الأخيرة هي الأساس الوحيد والوصية الوحيدة للأخلاق. فالصوفي يعتقد بأن لا وجود لانفصال الأنا عن الأنت ولا انفصال الهو عن الأنت، فكل واحد في الذات الكلية.<sup>29</sup> لقد كانت المحبة العنوان الأبرز للخطاب الصوفي، ونذكر أنه قيل لمعروف الكرخي: "أخبرنا عن المحبة أي شيء هي، قال: يا أخي ليست المحبة من تعليم الناس، المحبة من تعليم الحبيب."<sup>30</sup> و يقول الغزالي: إن المحبة هي الغاية القصوى من كل المقامات الصوفية والدرجة المبتغاة من العلى من الدرجات.<sup>31</sup>

#### 4. منطلقات القيم عند الصوفية:

تعتبر المحبة جوهر التصوف وسبب بقائه واستمراره، والمقصود من هذه المحبة هو الخالق عز وجل، فجوهر المحبة الإيثار، إيثار المحبوب على كل ما عداه، وفي إيثار الصوفي لله تتركز صفاته الأخلاقية كلها.<sup>32</sup> فالحب الإلهي هو منطلق منظومة القيم عند المتصوفة ومرتكزها، يقول ابن عربي: "فالله لا يحب في الموجودات غيره فهو الظاهر في كل محبوب لعين كل محب وما في الوجود إلا



محب، فالعالم كله محب ومحبوب، وكل ذلك راجع إليه.<sup>33</sup> فكل ما يكسب الصوفي من محبة ومعرفة أصلها الله، فهو عز وجل الدال على نفسه، يقول النصر آبادي: "التصوف نور من الحق يدل على الحق، وخاطر منه يشير إليه، التصوف فناؤك عن الكونين ليبقى، مكونهما."<sup>34</sup>

يتركز البعد الإلهي في منظومة القيمة عند المتصوفة فلا اعتبار لغيره، فيكون هذا البعد المنطلق لكل توجهات الصوفي المعرفية والأخلاقية، كما أن جوهر القيم مرتبط بمصدرها الوحيد وهو الله سبحانه، فالتوحيد يميز تمييزا حاسما بين الله الواحد وجميع المخلوقات، وكما أن التوحيد يعني وحدانية الله سبحانه، ومن ثمة وحدة المرجعية في الحقيقة والقيم، فإن التوحيد يفترض في الوقت نفسه أن القيم هي قيم لجميع البشر المخلوقين بلا تمييز.<sup>35</sup>

يلتزم الصوفي الطاعة والانصياع للتكليف الرباني، لأن طاعة الله وتحقيق إرادته هي القيمة التي تعطي كل شيء قيمته، فالواجب الأخلاقي يكون له معنى فقط حين يتمثل في نسيج العلاقات التي يقيمها الإنسان في حياته مع غيره من الناس في علاقات الأسرة والجوار، وعلاقات الإنتاج والاستهلاك ومعاملات التجارة، والاتصال والتنقل، وعلاقات التنافس والصراع والحرب والسلم، فالقيم الأخلاقية تبقى تصورات مثالية إذا لم تتحقق في علاقات البشر وحيات المجتمعات.<sup>36</sup> لذلك يختصر ابن عربي في قوله: "فالتصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا، وهي الخلق الإلهية. وقد يقال بإزاء مكارم الأخلاق وتجنب سفاسفها."<sup>37</sup>

تمتلك الرؤية التوحيدية التي يمتلكها الصوفي القدرة على ترجمة عقيدة التوحيد إلى أخلاق فلا تصادم بينهما بل هناك علاقة عميقة بينهما حيث يؤثر تفاعل أحدهما في الثاني، فحين يؤمن المسلم بعقيدة التوحيد تتحول هذه العقيدة في نيته، وفي عمله، إلى قوة أخلاقية، تدفعه للحركة في الكون، لتحقيق إرادة الله سبحانه،

ويدخل ميادين الحياة في سائر مناحي النشاط الإنساني، حتى يحدث التغيير المطلوب.<sup>38</sup> كما تتسجم العقيدة مع الشريعة فتعكس انسيابية في الأخلاق، وتوحيد الله في الإسلام يشمل توحيد النشاط الإنساني في صور يشترك فيها أفراد الأمة فيما ينشؤونه من النظم والتشريعات، لتحقيق الإرادة الإلهية وسيادة القيم التي تعبر عنه، وتتسع صور النشاط الإنساني الأخلاقي الذي تؤديه الأمة بأفرادها وجماعاتها، لتشمل العالم كله والناس أجمعين.<sup>39</sup>

يعد تصحيح عقيدة التوحيد وتثبيتها المرتكز الأساسي لإشاعة الأخلاق بين الناس لأن الإيمان بالله لا يزال يكبر في قلب المؤمن ويرتقي درجة فوق درجة، حتى يتحول فيه إلى محبة، ولا شيء فوق محبة الله، ومحبة المؤمن لأخيه إنما هي محبته لله، والإيمان والمحبة لا يفتأ يصطحبهما الرجاء، لأنه الجناح الذي يطير به المؤمن والمحب إلى مقام "الخلاص"، ويفوزان بهذا المقام، لا بموجب استحقاقهما، وإنما بموجب الفضل الإلهي.<sup>40</sup>

### 5. التخلق بأخلاق الله:

ترتكز منظومة القيم عند الصوفية على عقيدة التوحيد والتي برع الصوفية في ترجمتها والدعوة إليها من خلال الاعتراف بحضور الله في كل حركات وسكنات الصوفي فلا ينسب شيء له، بل الفضل لله في كل معارف وأخلاق الصوفي، فلقد فني الصوفية في حب مولاها، وتخلقوا بأخلاقه، وتأدبوا بآدابه، وتربوا في محاربه وعاشوا في ذكره ومناجاته، فعلمهم وطهرهم وزكاهم واصطفاهم واجتباهم وأحبهم ورضي عنهم، ففتح قلوبهم ملكوت السموات والأرض، يريهم عجائب كونه، ويداع قدرته، وأسرار خليقته، وأفاض عليهم هداياه وعطاياه، علوماً وأذواقاً، أو كما يقول الصوفية: "أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت."<sup>41</sup>

يتبنى الصوفية دعوة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في التخلق بأخلاق الله، يقول عبد الكريم الجيلي في قاب قوسين: "علم أيدك الله وإيانا بروح منه ولا أخلى الجميع عنه أن الكمال المعنوي ينقسم إلى قسمين: قسم كمالى إلهي يتحقق به الكمل رضوان الله عليهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: "تخلقوا بأخلاق الله". وقسم كمالى كوني يتخلق به الإنسان وهي الصفات المحمودة التي مجموعها مكارم الأخلاق".<sup>42</sup>

يتولى الخالق عز وجل تهذيب سلوك أحبائه ليتخلقوا بأخلاقه، قال شهاب الدين السهروردي: "... وهذا الذي عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تخلقوا بأخلاق الله" لا بنزاهة النفس وكمال التزكية، يعني المحب يستعد للمحبة، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية، ولكن سنة الله جارية أن يزكي نفوس أحبائه بحي توفيقه وتأبيده، وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب روحه بجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق، ويكون عنده ذلك رتبة في الوصول.<sup>43</sup> لذلك نجد الكثير من الصفات خاصة بالخالق عز وجل في تعامله مع خلقه يتميز بها الصوفي ويتبناه كمشروع مع خلق الله، ومن أوصاف هذه الطائفة الرأفة والرحمة والعفو، والصفح، وعدم المؤاخذة.<sup>44</sup>

يعرف على الصوفية أنهم يستهدفون التحقق بالوصول والقرب الإلهي من خلال السير والسلوك، وهذا الهدف ليس مسألة باطنية يتحقق به الصوفي فحسب بل أن حالة القرب تتمظهر في تعامل الصوفي مع خلق الله، يقول الغزالي: "والذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالافتداء والتخلق بالأخلاق الربوبية، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله".<sup>45</sup>

## 6. القيم ومشروع التزكية:

يتوقف مشروع التخلق بأخلاق الله بإتباع أوامر الله عز وجل لعباده بتبني مشروع التزكية الذي تتوقف عليه سعادة الدارين، يقول تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾<sup>46</sup>؛ يشترط على كل من انتسب إلى التصوف تهذيب النفس وتركيتها، والتزكية مصطلح ومفهوم قرآني أساسي، يتخذ موقعا مهما ضمن منظومة القيم القرآنية، فالتزكية موضوعها الإنسان المستخلف (بفتح اللام)، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني من خلال إصلاح الفرد والجماعة والأمة. والإنسان مادة وروح، والتزكية تشمل المادة والروح. وأي حديث عن قضايا الإصلاح لا معنى له إلا إذا تعلق بالإنسان، واستهدف ترقيته في مراتب التزكية.<sup>47</sup>

تعتبر مخاطر النفس الإنسانية شديدة على الإنسان خاصة إذ لم يعتن بها تربية وتهذيبا، والصوفي لا يرى العداوة في الغير أو ما يعرف بالسوى أي الخلق بل في العدو الذي يحمله بين جنبيه، والنفس الإنسانية التي لا يتحقق لها الفلاح بالتزكية، وتلقى في مهاوي الخيبة والخسران بالتدسية، هي الذات الإنسانية جسما وعقلا وروحا، وهي الفرد الإنساني والجماعة الإنسانية. وللنفس الإنسانية مال تمتلكه بتقويض من مالكة الأصلي، وهو سبحانه، ولها بيئة مكن الله للإنسان فيها واستخلفه عليها، ليسخر أشياءها وأحداثها وظواهرها في الاعمار، والبناء الحضاري. لكن محور التزكية ذلك هو الوجدان الإنساني الذي يكون موضوعا للتربية والتزكية والتنمية.<sup>48</sup>

يفعل الصوفي مشروع التزكية ضمن معادلة دقيقة تجمع بين الطريقة والشريعة والحقيقة، مما يعني أنه يتبنى قواعد للسير والسلوك تتجانس مع ضوابط الشريعة الإسلامية التي توصل إلى حقيقة التوحيد، يقول الشيخ أحمد الدردير في كتابه "الخريدة البهية": "واعلم أن التصوف بمعنى العمل هو الطريقة، وأما الشريعة

فهي أسرار الشريعة ونتيجة الطريقة علوم ومعارف تحصل لقلوب السالكين بعد صفائها من كدرات الطباع البشرية.<sup>49</sup>

يعمل الصوفي بحزم للابتعاد عن تدسية النفس، فلا يخضع لنوازع نفسه الطالبة للحظوظ الدنيوية لأنها من قواطع الطريق الموصلة إلى الله، وهنا يقول الورنجي: نبينا الله سبحانه و تعالى أن الوصول إلى قربه ومراتب دنوه في مشاهدته لمن لا يكون له حب الرياسة والجاه في قلبه، ولا يبأثر حظوظ نفسه وهواه، ومن خص بهذه الدرجات الشريفة لا تأتي منه أفعال الخبيثين.<sup>50</sup> وحتى لا يسقط الصوفي في هذه الحالة يلتزم مشروع التزكية بدقة فائقة الذي يتطلب الدخول في التخلية من أجل التخلية للوصول إلى التجلية، فإن ممارسة التخلي والتخلي إلى مستوى معين يمكن أن يدخل فيه "المريد السالك" حالة من الشفافية الروحية، والرفعة الوجدانية، يسمونها التجلي، حين يستشعر السالك فيها تجلي الحضرة الإلهية عليه.<sup>51</sup>

تضمن مشروع الدعوة إلى الله الذي حمله الأنبياء إلى البشرية من أجل التعرف على الله وتحقيق السعادة بقربه ووصله الذي شرطه التعلم والتزكية، فالأنبياء حملوا رسالة تعليم الناس وتزكيتهم، فاقترن التعليم بالتزكية، ولذلك فإن السلوك البشري في جميع جوانبه يعتمد أساسا على ما يحصله الإنسان من العلوم والمعارف، ويقدر ما يكتسب الإنسان من تزكية في ما يحصله من العلوم، تكون تزكية سلوكه في حياته، هداية واستقامة ورشدا، في خاصة نفسه، وفي علاقته بربه سبحانه، وفي علاقته بالآخرين، من أولى القربى، ومن إخوانه في الدين، وإخوانه في الإنسانية أجمعين.<sup>52</sup>

اهتم الصوفي بتصفية القلب وهو المقصود من تزكية النفس لأنه محل النورانية، فالكشف والشهود عند الصوفية يتوقف على سلامة القلب من الأغيار

والرذائل، ومن هنا درج الناس كذلك على أن الموضوع الأساسي لتزكية النفس هو القلب، فالتزكية تختص بأعمال القلوب أكثر مما تختص بأي شيء آخر.<sup>53</sup>

يعتبر مشروع التزكية الذي يتبناه الصوفية من أجل ترقية منظومة القيم هو ترجمة للمشروع القرآني ككل، ولذلك ليس ثمة تزكية لا تبدأ بالقرآن وتنتهي إليه. وليس ثمة تزكية لا تبدأ بالنفس الإنسانية وتنتهي بها، لذلك أصبحت تزكية النفس هي المظلة العامة لكل أشكال التزكية.<sup>54</sup>

### 7. فعالية القيم وضرورتها:

خاض الإنسان تجارب عديدة منذ أن وجد في هذه النشأة الدنيوية إلى يومنا هذا، وأن كل الخسارة التي تعرض لها كانت بسبب عدم تمسكه بمنظومة القيم، فهو لا يمكنه أن يستغني عن الأخلاق التي تتوطد علاقتها بباقي القيم، ذلك بأن "الأخلاق ليست كمالاتٍ بمعنى زيادات لا ضرر على الهوية الإنسانية في تركها، وإنما هي ضروراتٌ لا تقوم الهوية بدونها، بحيث إذا فقدت هذه الضرورات فقدت الهوية، وإذا وجدت وُجدت الثانية، بدليل أن الإنسان لو أتى ضدها أي ساءت أخلاقه لعدُّ لا في الأثام، وإنما في الأنعام، بحيث يتعين أن نعتبرها بمثابة مقتضيات تدخل في تعريف هوية الإنسان نفسها، ولن يتأتى لنا هذا إلا إذا جعلنا وجود الإنسان، لا متقدما على وجود الأخلاق، وإنما مصاحبا لوجودها"<sup>55</sup>

حرصت الشريعة الإسلامية على تأطير المجتمع الإنساني بمنظومة قيم من شأنها أن تعلي من إنسانيته وتجعله أهلا لسيادة المخلوقات، ولأن كل نشاط إنساني يحمل في طياته قيمة معينة، ومهمة الأمة الإسلامية هي تحقيق تلك القيمة، لذلك فإن لدى الأمة الإسلامية حكما في كل سلوك بشري، لأن الشريعة شاملة لأوجه النشاط جميعها.<sup>56</sup> ولا نجد فصلا في الدين الإسلامي بين العقيدة والسلوك ويعتبر

الإسلام محور مركزي للنظام الاجتماعي، وأن هناك علاقة وثيقة بين القيم والاعتقاد وبين الواقع الاجتماعي.<sup>57</sup>

تتفاضل الناس بالتقوى ، فقد حفظت البشرية الفضل والجميل لكل من عمل على ترقية المنظومة القيمية وتعزيزها في النفوس حيث أعتبر الصوفية من أهل التقوى وتمكنوا من وضع منظومة قيم اشرفوا بأنفسهم على نشرها ووقفوا لمشاريع هدم الإنسان بقوة بحكم أنهم ينتمون لقوى الطاهرة التي تعمل على صيانة الوجود الانساني، فالقوى الطاهرة هي قوى التماسك التي تنشط وتوحد وتشرف على الانسجام الكوني، كما تسهر على سلامة الكيان البشري والازدهار المادي واحترام القوانين وحسن سير الإرادة.<sup>58</sup>

يتشارك الصوفي مع جميع البشر قضاياهم الأخلاقية والمعرفية، وذلك انطلاقاً من أن الأخلاق تنشأ من تسرب بعض الإحساس الصوفي الكامن عند جميع البشر. في نظر الصوفي الذي يؤثر في مشاعرهم وحياتهم فالناس عند تعبيرهم عن مشاعرهم، كالحب والتعاطف... فلا بد أن يكون من طبيعته الصوفية سواء كان ذلك ضمناً أو صريحاً.<sup>59</sup>

يتحمل الصوفي مسؤولية وجودية اتجاه البشرية ليرفع عنها الغبن المعنوي والقيمي، وفي هذا الصدد يقول الجنيد: "لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البرّ والفاجر وكالسحاب يُظَلّ كلّ شيء، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت"<sup>60</sup> وتعتبر الخدمة العنصر الأساس في حياة الصوفي من أجل نشر القيم التي تعتبر ضرورتها ضرورة وجودية. ويقول الجنيد هنا أيضاً: "كالسحاب يُظَلّ كلّ شيء، يعني يعم بخدمة جميع الناس دون النظر الى أديانهم ومعتقداتهم، وقوله كالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت: أي يختص بمعرفة من يستحق ومن لا يستحق"<sup>61</sup>

تؤطر ممارسة الإنسان الحياتية تحت مظلة منظومة القيم وإلا خرج من المرتبة الوجودية التي خلق لأجلها إلى مرتبة وجودية دونية مقارنة مع التشريف الذي شرفه الله به، أي من حد الإنسانية إلى حد البهيمية، فالأخلاقية هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلا عن أفق البهيمية... وهي الأصل الذي تنفرع عليه كل صفات الإنسان من حيث هو كذلك، والعقلانية التي تستحق أن تتسب إليه ينبغي أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي.<sup>62</sup>

### 8. خاتمة:

تعد منظومة القيم التي يتبناه الصوفي معرفيا وسلوكيا أرقى المنظومات القيمية التي عرفتها البشرية، وهذا لأنه استوعب المطلب القرآني للقيم، فكان خير ممثل للمشروع القرآني الذي يؤكد على رفع الغبن على البشرية بالعمل على توطيد علاقتها مع خالقها التي لا تكون إلا بتزكية النفس حيث تكفل لصاحبها و المتحقق بها أن ينشئ علاقات سليمة ومثينة مع خالقه سبحانه وتعالى و مع خلقه الذين يحتاجون إلى المرشدين و المنقذين دائما، ولذلك لا تستطيع البشرية أن تستغني على رجال الله الذين تخلقوا بأخلاقه.

### الهوامش والإحالات:

<sup>1</sup> عزي عبد الرحمن، دراسات في نظرية الاتصال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص106.

<sup>2</sup> العوا عادل العمدة في فلسفة القيم، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط1، 1986، ص 365

<sup>3</sup> الشحات أحمد حسن، الصراع القيمي لدى الشباب، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، (د.ط.)، 1988، ص68.

<sup>4</sup> العوا عادل، العمدة في فلسفة القيم، ص 93

<sup>5</sup>Custave Fische, les domaines de la psychologie social, dunod, Paris, 2000, p16



- <sup>6</sup> خطاب سمير، التنشئة السياسية والقيم، إيتراك للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2004، ص 63
- <sup>7</sup> العوا عادل، العمدة في فلسفة القيم، ص 378
- <sup>8</sup> عبده مصطفى، فلسفة الأخلاق، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط2، 1999، ص 17
- <sup>9</sup> خروف حميد وآخرون، الإشكالات النظرية والواقع، دار البعث، دمشق، سوريا، (د.ط)، 1999، ص 132
- <sup>10</sup> العوا عادل، العمدة في فلسفة القيم، ص 402
- <sup>11</sup> رجب منصور علي، تأملات في الفلسفة الأخلاق، مطبعة مخيمرة، القاهرة، مصر، ط1، 1953، ص 181
- <sup>12</sup> العوا عادل، العمدة في فلسفة القيم، ص 441
- <sup>13</sup> المرجع نفسه، ص 440
- <sup>14</sup> عبده مصطفى، فلسفة الأخلاق، ص 19
- <sup>15</sup> العوا عادل، العمدة في فلسفة القيم، ص 450
- <sup>16</sup> محمد خليفة حسن أحمد، الحوار منهجا وثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 2008، ص 122
- <sup>17</sup> بدوي محمد، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، 2000، ص: ب
- <sup>18</sup> عيسى عبده غالب أحمد، مفهوم التصوف، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص 09
- <sup>19</sup> عطا عبد القادر أحمد، التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقْتباس في عصر النابلسي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص 07
- <sup>20</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- <sup>21</sup> عيسى عبده غالب أحمد، مفهوم التصوف، ص 11
- <sup>22</sup> التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، 1979، ص 08
- <sup>23</sup> ابن عربي محي الدين، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1863، ص 83
- <sup>24</sup> التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 07
- <sup>25</sup> محمود عبد الحلیم، قضية التصوف، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص 426

- <sup>26</sup> ابن عربي، الفتوحات المكية ، ص، ص، 267، 266
- <sup>27</sup> عيسى عبده غالب أحمد، مفهوم التصوف، ص 97
- <sup>28</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- <sup>29</sup> ستس ولتر، التصوف والفلسفة، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1999، ص 390
- <sup>30</sup> الكلاباذي أبو بكر محمد ابن إسحاق، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: عبد الحلیم محمود، طه عبد الباقي سرور، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط2004، 1، ص
- <sup>31</sup> الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج4، دار الفكر، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص294
- <sup>32</sup> عفيفي أبو علاء، الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص231
- <sup>33</sup> ابن عربي محي الدين، الفتوحات المكية، ص 322
- <sup>34</sup> الخرکوشي عبد الملك، تهذيب الأسرار، تحقيق: بسام بارود، المجمع الثقافي أبو ظبي، الإمارات، (د.ط)، 1999، ص، 37، 36
- <sup>35</sup> ملكاوي فتحي حسن، منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، و.م.أ، ط1، 2013، ص 55
- <sup>36</sup> المرجع نفسه، ص، ص، 60، 59
- <sup>37</sup> ابن عربي محي الدين، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق: سالم عبد الوهاب الحابي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص 74
- <sup>38</sup> ملكاوي فتحي حسن، منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران، ص 73
- <sup>39</sup> المرجع نفسه، ص 72
- <sup>40</sup> عبد الرحمن طه، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي، الدار البيضاء ، ط4، 2009، ص32
- <sup>41</sup> الكلاباذي أبو بكر محمد ابن إسحاق، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص، ص، 4، 3
- <sup>42</sup> المناوي زين الدين محمد عبد الرؤوف، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ج1، تقديم: أحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص 83
- <sup>43</sup> اليافعي عبد الله بن أسعد، نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص، ص، 186، 185
- <sup>44</sup> عيسى عبده غالب أحمد، مفهوم التصوف، ص 98

- 45 الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج4، مكتبة كرياضة فوترا، القاهرة، (د.ت)، ص324
- 46 سورة الشمس، الآية: 6-9
- 47 ملكاوي فتحي حسن، منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية وال عمران، ص 81
- 48 المرجع السابق، ص 83
- 49 عيسى عبده غالب أحمد، مفهوم التصوف، ص 27
- 50 عطا عبد القادر أحمد، التصوف الإسلامي بين الأصالة والافتباس في عصر النابلسي، ص16
- 51 ملكاوي فتحي حسن، منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية وال عمران، ص 100
- 52 المرجع السابق، ص 107
- 53 المرجع نفسه، ص 108
- 54 المرجع نفسه، ص 113
- 55 طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في نقد الأخلاقي للحادثة الغربية، ص 54.
- 56 ملكاوي فتحي حسن، منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية وال عمران، ص 60
- 57 بيومي أحمد، علم اجتماع القيم، دار المعرفة الجامعية، 2004، ص 148
- 58 كايوا روجيه، الإنسان المقدس، تر: سميرة ريشان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص، ص، 10، 11
- 59 خوجة لطف الله، موضوع التصوف، مكتبة الملك فهد، مكة المكرمة، السعودية، (د.ط)، 1432هـ، ص 40
- 60 هادي العلوي، مدارات صوفيّة، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ودار المدى، دمشق، سوريا، ط1، 1997، ص 184
- 61 المرجع نفسه، ص 185.
- 62 طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في نقد الأخلاقي للحادثة الغربية، ص 14.